

# نشأة الخلافة

ذكر

عبدالله عقيل عتاي

**الخلافة لغة:** كلمة عربية أصيلة من المصدر «خلف» يقال: خلفه في قومه يخلفه خلافة فهو خليفه، ومنه قوله تعالى «وقال موسى لأخيه هرون اخلفني في قومي»<sup>(١)</sup> ويقال: خلفته إذا جثت بعده، والخليفة: السلطان الأعظم، والجمع خلائف وخلفاء<sup>(٢)</sup>.

**واصطلاحاً:** هي الزعامة العظمى، وهي الولاية العامة على كافة الأمة، والقيام بأمورها والنهوض بأعبائها<sup>(٣)</sup>. فهي رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا نيابة عن النبي ﷺ. أو كما يقول ابن خلدون «هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة. فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به»<sup>(٤)</sup>.

وقد ذكر كل من الماوردي وابن خلدون كلمة إمامة مرادفة لكلمة خلافة، وعرف الماوردي الإمامة بأنها «موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا»<sup>(٥)</sup> وفصل ابن خلدون هذا المعنى بقوله بأنها «تسمى خلافة وإمامة والقائم بها (أي بهذا المنصب) خليفة وإماماً. فأما تسميته إماماً فتشبيهاً بإمام الصلاة في اتباعه والافتدائه به، وهذا يقال للإمامة الكبرى. وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي ﷺ في أمته»<sup>(٦)</sup> وقد وردت في القرآن الكريم كلمة خليفة وجمعها خلائف في عدة مواضع: قال تعالى في سورة (ص)<sup>(٧)</sup> «يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ... الآية»

وقال في سورة البقرة<sup>(٨)</sup> «وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة...» وقال في سورة الأنعام<sup>(٩)</sup> «وهو الذي جعلكم خلائف الأرض... الآية» على أنه يبدو أن كلمة خليفة وخلائف التي وردت في هذه الآيات لا تحمل المعنى الذي قصد به استعمالها بعد وفاته ﷺ. وهي خلافته في أمته وحراسة الدين وسياسة الدنيا. كذلك لم يؤثر عنه ﷺ نص صريح في مسألة الحكم من بعده وفيمن يكون. وكيف يتم تعيينه. ولكنه ترك أمر المسلمين شورى بينهم ليختاروا من أحبوا.

رفقد نقل عن أبي بكر رضي الله عنه قوله: «وددت أني كنت سألت رسول الله ﷺ عن هذا الأمر فلا ينازعه أحد»<sup>(١٠)</sup> كما نقل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله عند وفاته «إن استخلف فقد استخلف من هو خير مني». وإن تركهم فقد تركهم من هو خير مني» يقول الطبري «فعرف الناس أن رسول الله ﷺ لم يستخلف أحدا»<sup>(١١)</sup>.

وحيث لم يرد نص صريح في الكتاب أو السنة عن الخلافة بمعناها الاصطلاحي المتداول بعد وفاة النبي ﷺ. ولم يستخلف رسول الله ﷺ من بعده. كما أنه من الثابت أن العرب في جاهليتهم لم يألوا في أنظمة حكمهم نظاماً مماثلاً أو شبيهاً بالخلافة. فلما أن تساءل: كيف نشأت الخلافة؟ وقبل أن نجيب على هذا التساؤل. تجدر الإشارة إلى أن عدم وجود نص صريح من الكتاب أو السنة في مسألة خلافة رسول الله ﷺ. قد ترك الباب مفتوحاً للمجادل حول الخلافة. والاختلاف فيمن يجب أن تتول إليه والاجتهاد بين علماء المسلمين وفقهائهم في شروطها وواجباتها وكيفية اختيار من يعينها. يقول الشهرستاني «وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة. إذ ما سل سيف في الإسلام على قاعدة دنيئة مثل ما سل على الإمامة في كل زمان»<sup>(١٢)</sup>. فقد اختلف على الخلافة المهاجرون والأنصار. واختلف عليها نفر من المهاجرين أنفسهم. وتطور النزاع على الخلافة فيها بعد تطوراً خطيراً بين الفرق الإسلامية. وظهرت نظريات تتناول الخلافة. اتسم بعضها بالاعتدال وانعرف البعض الآخر وتطرف حتى الإخاد.

وفي هذا البحث سنحاول أن نلقي الضوء على الظروف والملابسات التي صاحبت

نشأة الخلافة. وناقش بعض الآراء التي تناوأت هذا الموضوع. وستقتصر في غشنا على عهد الخلفاء الراشدين. إذ في هذا العصر أرسيت دعائم الخلافة ووضعت القواعد التي تبلورت على أساسها النظريات التي ظهرت فيما بعد عن الخلافة.

نشأت الخلافة وليدة لظروف اقتضتها أوضاع المجتمع الإسلامي في المدينة عقب وفاة النبي ﷺ. ففي عهده اجتمعت في يده جميع السلطات الدينية والدينية فهو النبي والمشرع والقائد ورئيس الدولة.

فكان من الضروري بعد أن انتقل النبي ﷺ إلى الرقيق الأعلى. واختتمت بوفاته الرسائل السماوية أن يختار المسلمون لأنفسهم من يجمع شتات أمرهم ويثول رعاية أمورهم الدينية وتصریف شئونهم الدينية دون المساس بجوهر العقيدة التي اكتملت قبل وفاته ﷺ. فكان أن نشأت الخلافة. وقد أشار الخليفة الثاني عمر بن الخطاب في خطبة له في مسجد رسول الله ﷺ إلى حقيقة هذه النشأة. وأنها كانت وليدة الصدفة بقوله «أنه قد بعني أن فلاناً قال: والله لو قد مات عمر بن الخطاب لقد بايعت فلاناً. فلا يغرن امرأ أن يقول: إن بيعة أبي بكر كانت فلتة فتمت. وأنها قد كانت كذلك. إلا أن الله قد وفق شرها وليس فيكم من تنقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر»<sup>(١)</sup>.

وأشهر الروايات وأكثرها تفصيلاً عن بيعة أبي بكر رضي الله عنه بالخلافة وموقف الأنصار منها. ما رواه الضري عن أبي محنف عن عبدالله بن عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري. وملخص هذه الرواية أن النبي ﷺ لما قبض اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة فقالوا: نولي هذا الأمر بعد محمد عليه السلام سعد بن عباد وأخرجوا سعداً إليهم وهو مريض. فلما اجتمعوا قال لابنه أو بعض بني عمه: إني لا أقدر لشكواي أن أسمع القوم كلهم كلامي ولكن تلق مني قولاً فاستمعوه. فكان يتكلم ويعطف الرجل قوله فيرفع صوته فيسمع أصحابه فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: يا معشر الأنصار لكم سابقة في الدين وفصيالة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب. إن محمداً عليه السلام لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن.. فما آمن به من قومه إلا رجال قليل. ما كانوا يقدرون على أن يجمعوا رسول الله ولا أن يعزوا دينه.. حتى

إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة ونخصكم بالنعمة فرزقكم الله الإيمان به ورسوله والمنع له ولأصحابه والإعزاز له ولدينه والجهاد لأعدائه ... (ثم قال) استبدوا بهذا الأمر دون الناس. فأجابوه بأجمعهم أن قد وفقت في الرأي. وأصبت في القول. ولن نعدوا ما رأيت نوليكَ هذا الأمر .. ثم تراءوا الكلام بينهم. فقالوا: فإن أبت مهاجرة قريش؟ فقالوا نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الأولون ونحن عشيرته وأولياؤه معلوم تنازعونا هذا الأمر بعده. فقالت طائفة منهم فإننا نقول: إذن منا أمير ومنكم أمير ولن نرضى بدون هذا الأمر أبداً. فقال سعد بن عبادة حين سمعها: هذا أول الوهن. وأتى عمر الحارث فأقبل إلى منزل النبي ﷺ فأرسل إلى أبي بكر. وأبو بكر في الدار وعلى ابن أبي طالب دائب في جهاز رسول الله ﷺ فأرسل إلى أبي بكر أن اخرج إليه فأرسل إليه. إني مشغول. فأرسل إليه أنه قد حدث أمر لا يد لك من حضوره فخرج إليه. فقال: أما علمت أن الأنصار قد اجتمعت في سقيفة بني ساعدة يريدون أن يولوا هذا الأمر سعد بن عبادة وأحسنه مقالة من يقول: منا أمير ومن قريش أمير. ففضيا مسرعين نحوهم فلقياً أبا عبيدة بن الجراح فتأشوا إليهم ثلاثتهم ... فجاءوا وهم مجتمعون. فقال عمر بن الخطاب أتيانهم وقد كنت زويت كلاماً أردت أن أقوم به فيهم. فلما أن دعت إليهم ذهب لأبيدئ المنصف فقال لي أبو بكر رويداً حتى أتكم. ثم انقض بعد ما أحبيت. فنقض. فقال عمر ما شيء كنت أردت أن أقوله إلا وقد أتى به أو زاد عليه. فبدأ أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله بعث محمداً رسولاً إلى خلقه ... فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به والمؤازاة له والصبر معه على شدة أذى قومهم ثم وتكديبه إياهم .... فهم أول من عبد الله في الأرض وآمن بالله وبالرسول. وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده. وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم في الدين ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام ... فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلة من نحن الأمراء وأنتم الوزراء ... قال: فقام الحباب بن المنذر بن الحموح فقال: يا معشر الأنصار أملكوا عليكم أمركم فإن الناس في فيثكم وظلمكم ... أبى هؤلاء إلا ما سمعتم فمنا أمير ومنهم أمير. فقال عمر: هيات لا يجتمع اثنان في قرن. والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم. ولكن العرب لا

نمنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيه وولي أمورهم منهم . ولنا بذلك على من أبى من العرب الخجة القاهرة والسلطان المبين ... فقام الحباب بن المنذر فقال: يا معشر الأنصار أملكوا على أيديكم فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم فإنه بأسيا فكم دان هذا الدين من دان ... فقال أبو عبيدة يا معشر الأنصار إنكم أول من نصر وأزر فلا تكونوا أول من بدل وغير . فقال فقام بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير فقال: يا معشر الأنصار إنا والله لن كننا أولى فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في هذا الدين ما أردنا به إلا رضا ربنا وضاعة نيت والكدر لأفئتنا . فما ينبغي أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبتغي به من الدنيا عرضاً . فإن الله ولي المنة علينا بذلك . إلا أن محمداً ﷺ من قريش وقومه أحق به وأولى . وإيم الله لا يراني الله أنأزعه هذا الأمر أبداً . فاتفقوا الله ولا تخالفوه ولا تنازعوه . فقال أبو بكر: هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأبها شتم فابعوا . فقالا: لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك فإنك أفضل المهاجرين . وثاني اثنين إذ هما في الغار . وعليفة رسول الله على الصلاة . والصلاة أفضل دين المؤمنين . من ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك . أبسط يدك نيا بعتك . فلما ذهبوا ليلابعه سبقها إليه بشير بن سعد فابعه ... ولما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد وما تدعو إليه قريش . وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عباد . قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير . وكان أحد التقياء والله لن وليتها الخزرج عليكم مرة لازالت هم عليكم بذلك الفضيلة . ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً أبداً فقوموا فابعوا أبا بكر . فقاموا إليه فابعوه . فانكسر على سعد ابن عباد وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم ... فانقيل الناس من كل جانب يابعون أبا بكر وكادوا يضأون سعد بن عباد<sup>(١٥)</sup> .

وقبل أن ناقش حقيقة موقف الأنصار والنتائج التي تريت عليه . سنم توقف آخر للمعارضة . وهي المعارضة التي قبل بأنها نشأت من قبل نفر من المهاجرين أنفسهم . يروي ابن هشام أنه لما قبض رسول الله ﷺ ... اعتزل علي بن علي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله في بيت فاطمة وانغاز بقية المهاجرين إلى أبي بكر<sup>(١٦)</sup> ويقول اليعقوبي إنه تخلف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار . ماثلوا مع علي ابن أبي طالب منهم : العباس بن عبد المطلب . والفضل بن العباس . والزبير بن العوام .

وخالد بن سعيد بن العاص، والمقداد بن عمرو، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، والبراء بن عازب وأبي بن كعب<sup>(١٧)</sup>. ويتفق أبو الفدا وابن الوردي<sup>(١٨)</sup> مع ابن هشام في روايتهما. في حين يشير ابن الأثير إلى اعتزال جميع بني هاشم البيعة لأبي بكر رضي الله عنه فيقول «بقي على وبنو هاشم والزبير ستة أشهر لم يبايعوا أباً بكر حتى ماتت فاطمة رضي الله عنها فبايعوا»<sup>(١٩)</sup>.

لقد أثار اجتماع سقيفة بني ساعدة وموقف الأنصار في هذا الاجتماع، وكذلك اعتزال نفر من المهاجرين بزعامة علي البيعة لأبي بكر - رضي الله عنهم أجمعين - الكثير من السجل حول نشأة الخلافة. فحفلت مصادر التاريخ الإسلامي بالعديد من الروايات التي هي في كثير من الأحيان يتناقض بعضها بعضاً، كما أسهت في سرد كثير من المواقف التي يستبعد الباحث أن تكون قد صدرت من صحابة رسول الله ﷺ، خاصة وأنها لا تتفق بأي حال من الأحوال مع ما أثر عن أولئك نفر رضوان الله عليهم من سلوكيات في مواقف أخرى. وقد تجاوز بعض المستشرقين<sup>(٢٠)</sup> الحد في نقاشهم لخلافة أبي بكر فقالوا: إن موقف أبي بكر وعمر وأبي عبيدة يوم السقيفة كان بناء على مؤامرة مسيقة دبرت بين ثلاثهم ليتعاقبوا الحكم واحداً بعد الآخر: أبو بكر فعمرو فأبو عبيدة. وهذا ستحلف أبو بكر عمر. وقال عمر حين حضرته الوفاة: لو كان أبو عبيدة حياً لعهدت إليه. لأنه أمين هذه الأمة كما قال فيه رسول الله ﷺ.

ولتوضيح موقف المهاجرين الثلاثة: أبي بكر وعمر وأبي عبيدة، وموقف الأنصار، وكذلك علي ومن انحاز معه، رضوان الله عليهم أجمعين، ستحدث عن كل فريق على حدة، وستخصص إلى نتيجة حتمية. وهي أن الأمور قد جرت في بيعة أبي بكر بحراها الطبيعي. وإن الخلافة قد نشأت بطريقة لم تكن لتنشأ بعدها في ظل الظروف التي مرت بها الجماعة الإسلامية إثر وفاته ﷺ.

توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين لليلتين أو لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، وتكاد تجمع الروايات أن أبا بكر كان يومذاك غائباً عن المدينة عند إحدى زوجاته بمكان يسمى السبخ<sup>(٢١)</sup> (شرقي المدينة) وذلك لتحسن ضراً على صحة النبي ﷺ في اليوم

سابق يوفاته. وأنه قدم على رسول الله ﷺ بعد وفاته فدخل عليه وهو مسجى في ناحية من بيت عائشة فقبله ثم خرج فأبصر عمر بن الخطاب يكلم الناس ويقول: «إن رجلاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفي وأنه والله ما مات... إلى آخره، فأمر أبو بكر عمر بالسكوت، ثم أقبل على الناس فقال: «أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات. ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت... ثم تلا قوله تعالى «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل... الآية، يقول عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر يتلوها فعفرت حتى وقعت إلى الأرض وما تحملي رجلاي. وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات» (٢٢) ثم انصرف أبو بكر رضي الله عنه للمشاركة في الاستعداد لتجهيز الرسول ﷺ. فوجيء بخبر اجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ينقله له عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فتوجه سويماً نحو السقيفة ليشهد الاجتماع. وفي طريقها لقيا أبا عبيدة فاصطحباه معها وحضروا جميعاً ذلك الاجتماع الخامس. وتم ما تم من انتخاب أبي بكر. هذا ما تكاد أن تجمع عليه المصادر عما حدث إثر وفاته عليه الصلاة والسلام. وقبل أن يحسم الموقف في سقيفة بني ساعدة.

لقد انطلق المهاجرون الثلاثة في مطالبهم بأن تكون الخلافة في قريش بصفة عامة وفي المهاجرين بصفة خاصة. من مسوغات عدة هي: أن المهاجرين كانوا هم أول من صدق وآمن برسالة محمد بن عبدالله ﷺ. وأن قريشاً هم عشيرة محمد وهم بذلك أولى الناس بخلافته. وأنه لا يمكن أن يجتمع اثنان في قرن أي أن يتولى الخلافة اثنان. فذلك يؤدي إلى التنازع والاختلاف. وأن العرب لا ترضى أن يولي عليها أحد من غير بيت نبيها ولكنها لا تمنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيه: أي قريش التي يتسب إليها الرسول ﷺ (٢٣).

وانطلق عمر وأبو عبيدة في بيعتهما لأبي بكر بالخلافة من عدة بواعث أيضاً: فهو أول من آمن من الرجال. وهو صاحب رسول الله ﷺ في الغار. وهو من أنابه ﷺ للصلاة بالناس أثناء مرضه. وقد اعتبر عامة الصحابة تفويض النبي ﷺ أبا بكر للصلاة بالناس إشارة صريحة إلى رغبته في استخلافه دون الحاجة إلى النص بذلك (٢٤) وقد نقل عنه ﷺ أنه قال «لا يبقين في المسجد باب إلا باب أبي بكر فإني لا أعلم أحداً أفضل

في الصحبة عندي منه. ولو كنت منخذاً خليلاً لانتخذت أبا بكر خليلاً. ولكن أئمة الإسلام،<sup>(٢٥)</sup> وفي قول آخر، ولكن صحبة إخواني حتى يجمع الله بيننا عنده،<sup>(٢٦)</sup> وإلى جانب ذلك فقد كان أبو بكر أسن الصحابة المؤهلين للخلافة وأكثرهم نفوذاً. يقول المؤرخ الذهبي (وباع المسلمون بعده (بعد رسول الله) خليفته على الصلاة بالناس)<sup>(٢٧)</sup> وقد خلص سعد بن عباد رضي الله عنه موقف الأنصار من الخلافة

وحجبتهم في المطالبة بها في خطبته التي ألقاها في اجتماع السقيفة. وقد بنى حجته على أن: للأنصار سابقة في الدين وقسيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب. وأن الأنصار هم الذين آووا رسول الله ﷺ ومنعوه وآووا أصحابه من المهاجرين وجاهدوا لإعلاء دين الإسلام حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً. فلهن حتى في هذا الأمر فإن لم تكن الخلافة فيهن. فلا أقل من أن يكون منهن أمير ومن المهاجرين أمير<sup>(٢٨)</sup>.

وهنا نلاحظ أن اجتماع السقيفة قد اتخذ طابع الفاش والجدل الموضوعي (أو ما يسمى بلغة عصرنا الحملة الانتخابية) فلم يغمط المهاجرون الثلاثة حق الأنصار. بل قابلوا الحجة بالحجة فقال أبو بكر: بأن المهاجرين هم أول من عبد الله في الأرض وآمن بالله وبالرسول وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده... ثم قال: وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم في الدين ولا سابقتهم العقلية في الإسلام رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله وجعل إليكم هجرته... فقبس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمزلة لكم فتحن الأمراء وأنتم الوزراء)<sup>(٢٩)</sup> لقد تعددت الروايات عن اجتماع سقيفة بني ساعدة وما قيل في هذا الاجتماع فاختلط الواقع بالخيال في أذهان بعض الرواة ونعمد البعض تحريف الواقع وإضافة كلمات في أفواه المجتنبين لم تكن لتصدر عنهم مع أن الأمر لا يعدو اجتماعاً لثغر من أجلاء الصحابة لاختيار خليفة يتولى أمور المسلمين بعد وفاة رسول الله ﷺ.

ولنخلص إلى رواية هي أقرب إلى الواقع عما قيل في سقيفة بني ساعدة يمكن أن نضيف إلى رواية الطبري بعد حذف بعض عباراتها - ما ذكره ابن كثير عن الإمام أحمد - (أن أبا بكر وعمر انطلقا بعدادان حتى أتوهن (أي الأنصار) فتكلم أبو بكر فلم يترك



سبب رب في الأنصار. ولا ذكره رسول الله من شأنه إلا ذكره وقال: لقد علمت أن رسول الله ﷺ قال: لو سبب الناس واديا وسبكت الأنصار واديا لسبكت وادي الأنصار. ولقد علمت يا سعد أن رسول الله ﷺ قال: وأنت قاعد - فريش ولادة هذ لأمر فبر الناس تبع لبرهم ووحدهم تبع لحاجتهم

فقال سعد: صدقت حين أوردته وأسم لأمره<sup>(١٠٠)</sup> وفي رواية أخرى عن أحمد بن حنبل أن عمر رضي الله عنه قال: يا معشر الأنصار اسم تعلمون أن رسول الله ﷺ قد مر بأب بكر أن يؤم الناس فيكم تطيب عنه أن يتقدمه أب بكر. فقال الأنصار: يعوذ بالله أن يتقدمه أب بكر<sup>(١٠١)</sup> لقد كان الأنصار - كما قال لعناد رحمه الله - يفضون حق محمد صلى الله عليه وآله من عبادة ولا يتوون لزيادته. أو جدون في تكفاح لانتزاع الخلافة. كانوا مسلمين قبل كل شيء. ولم يكنوا ضالاب ملث قبل كل شيء. وكانوا يعنون ما أحبه مسلمون جميعا. إذ قالوا بن أبي بكر على الدين بتقدمه لصلاته فكيف لا يؤتم على الدين. وكانوا يعلمون أن المهاجرين مقدمون في القرآن على الأنصار والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار. فلم يكن بينهم عنتهم. في خلافة إجماع من بعض القوا به وبسبب في ضد<sup>(١٠٢)</sup> وقد أضلنا إلى ما تقدمه. ما كان بين الأنصار أنفسهم من تنافس بين أولسهم وخزرجهم. وله من برضى فريق أن يسلم موه في تخريق الآخر لأدركنا دون أي شياس أن الأمور قد جرت في سبقة بني ساعدة عمرها لقصبي وأن اشحاب في بكر كان نتيجة حتمية اقتصاد موقف الجماعة الإسلامية بعد وفاته ﷺ. فإذ ما تنقلا إلى علي بن أبي طالب ومن خذ به من بني هاشم وغيرهم: رسول الله تعالى عليهم أجمعين. وهم كما تذكر الروايات التي أشرا إليها. لتريق الثاني من تعرض لخلافة أبي بكر. فمسجد ن أحد من هذ الفريق لم يحضر جنازة سبقة بني ساعدة ولم يكن عدم حضورهم بقصد مقاطعة هذ الاجتماع. فقد روى أنه حين غلب أبو بكر وعمر إلى سبقة قام على والعباس وابنه لفصل وقتهم وسامه بن زيد يتولون ظهر رسول الله ﷺ<sup>(١٠٣)</sup> ولم يعلم أحد منهم بذلك لاجتماع. فقد خلاص في موضوع آخر ل علي ومن معه من بني هاشم وغيرهم السبعة لأبي بكر

المؤرخون في مختلف العصور. كما حاصر في هذا الموضوع فرق الشيعة وفقهاؤهم. وطور الشيعة فيها بعد نظريات مختلفة عن الخلافة ووجوب حصرها في بيت آل الرسول ﷺ. وليس هنا موضع نقاش لما ذهب إليه آراء هذه الفرق. ولكن ما يهمنا هو أن نستوضح موقف علي رضي الله عنه من الخلافة ومن بيعة أبي بكر.

وخلاصة ما جاء في المصادر عن موقف علي بن أبي طالب من بيعة أبي بكر رضي الله عنها: أن علياً اعتزل البيعة لأبي بكر في أول الأمر وأنه لم يبايع إلا بعد ستة أشهر من خلافة أبي بكر.

لقد نظر بعض المؤرخين وفقهاء الشيعة إلى تحلف علي عن بيعة أبا بكر إثر وفاة الرسول ﷺ على أنها رفض من جانب علي لخلافة أبي بكر وادعاء بأحقية في أن يرث الولاية على المسلمين عن رسول الله ﷺ. على أن تلك المصادر نفسها التي تتحدث عن رفض علي لبيعة أبي بكر ومطالبة بالخلافة تعود فتفتي ما ذهب إليه أولاً: يقول الطبري «كان علي في بيته إذ أتى فقبل له قد جلس أبو بكر للبيعة فخرج في قبض ما عليه أزار ولا رداء عجلًا كراهية أن يبطئ عنها حتى يابعه، ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه فأثابه فتخلله وثره مجلسه»<sup>(٣١)</sup> ويقول في موضع آخر: قال عمرو بن حريث لسعيد بن زيد: أشهدت وفاة رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: فنتى يوبع أبو بكر. قال: يوم مات رسول الله ﷺ. كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة. قال: فهل خالف عليه أحد. قال: لا إلا مرتد أو من قد كاد أن يرتد لولا أن الله عز وجل ينقذهم من الأنصار. قال: فهل قعد أحد من المهاجرين. قال: لا. تتابع المهاجرون على بيعته من غير أن يدعوه»<sup>(٣٢)</sup>. ويقول ابن الأثير «لما ولي (أبو بكر) الخلافة وارتدت العرب خرج شاهراً سيفه إلى ذي القصة. فجاءه علي وأخذ بزمام راحلته وقال له: أين يا خليفة رسول الله ﷺ. أقول لك ما قال لك رسول الله ﷺ يوم أحد: شمس سيفك ولا تفعما بنفسك. فوالله لئن أصبنا بك لا يكون للإسلام نظام. فرجع وأمضى الخيش»<sup>(٣٣)</sup> ويقول ابن عبد ربه «قبل لعلي: علام بايعت أبا بكر؟ فقال: إن رسول الله ﷺ لم يمت فجأة. كان يأتيه بلال في كل يوم في مرضه يؤذنه بالصلاة. فيأمر أبا بكر

يفعلي بالناس، وقد تركني وهو يرى مكائي، فلما قبض رسول الله ﷺ رضي المسلمون لدنياهم من رضيهم رسول الله ﷺ لديهم فباعوه وبايعته (٣٧).

والحقيقة أن علياً تخلف عن بيعة أبي بكر رضي الله عنها، ولكن لم يكن تخلفه عن البيعة ناشئاً عن عدم موافقته أو رفضه لخلافة أبي بكر، بل لقد كان هناك سبب آخر مصدره اختلاف في وجهة النظر. وقد نشأ هذا الاختلاف بعد وفاة النبي ﷺ مباشرة، وكانت بيعة أبي بكر في اليوم الذي توفي فيه عليه الصلاة والسلام، ومن ثم فقد أصبح أبو بكر طرفاً في هذا الخلاف في حين كان علي وزوجته فاطمة بنت رسول الله ﷺ والعباس بن عبد المطلب هم الطرف الثاني. وقد روى هذا الخلاف ابن كثير نقلاً عن حديث ورد في البحاري ... عن عائشة رضي الله عنها: «أن فاطمة والعباس أتيا أبا بكر رضي الله عنه يلتمسان ميراثهما من رسول الله ﷺ، وهما حيثئذ بطبائبان أرضه من فذك وسهمه من خير، فقال أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ يقول «لا نورث ما تركناه صدقة». إنما يأكل آل محمد من هذا المال» قال أبو بكر: والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله ﷺ يصعله فيه إلا صنعته قال: فهجرته فاطمة فلم تكلمه حتى مات» (٣٨) وقد سألت فاطمة أبا بكر أن يعين علياً للطرف في صدقة الأرض التي خير وفدك فلم يجيبها إلى ذلك «لأنه رأى أن حقاً عليه أن يقوم في جميع ما كان يتولاه رسول الله ﷺ ... فحصل لما عتب وتغضب ...

واحتاج علي أن يراعي لحاضرها بعض الشيء، فلما ماتت بعد ستة أشهر من وفاة أبيها رأى علي أن يحدد البيعة لأبي بكر رضي الله عنها (٣٩). إذاً لم يكن تردد علي في البيعة لأبي بكر ناشئاً عن رغبته في أن يتقدم علي أبي بكر في الخلافة أو أن يرثها عن رسول الله ﷺ، أو أن يتنازع ويقاوم من أجلها، أو أن يخرج علي إجماع المسلمين بل لقد كان عاتباً على الصديق رضي الله عنه موقفه من فاطمة رضي الله عنها، وكان عتابه هو عتاب الصديق الصادق، لا خصام تعدوا الحاقده.

يروى الطبري أن أبا سفيان قال لعلي ما بال هذا الأمر في أقل حي من قريش والله لن شئت لأملأها عليه خيلاً ورجلاً، فقال علي: يا أبا سفيان طال ما عادت الإسلام

وأهله فلم تضره بذلك شيئاً إنا وجدنا أبا بكر لها أهلاً<sup>(١٠)</sup>.

لقد انتخب أبو بكر رضي الله عنه ليخلف رسول الله ﷺ عليه في أمته واشترك في انتخابه نفر من المهاجرين والأنصار. أي صفوة المجتمع الإسلامي آنذاك. وبويع في اليوم التالي لانتخابه بيعة عامة في مسجد رسول الله. وأصبحت طريقة انتخابه مهجاً يعتد به فيما بعد. فكانت هناك في الخلافتين الأموية ثم العباسية بيتان: بيعة الخاصة ثم البيعة العامة.

ولم يكن استخلاف أبي بكر لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما نتيجة لتدبير مسبق بينهما كما ادعى ذلك بعض فرق الشيعة<sup>(١١)</sup> أو بعض المشرقين<sup>(١٢)</sup> فلو كان أبو بكر ممن يتأمر على الخلافة لكان الأولى به أن يسعى لانتقالها إلى أحد أبنائه من بعده. أو أن يختار لها أحداً من رجال قبيلته كطلحة بن عبيد الله. أو غيره ولكن أبا بكر. وقد كان يؤثر مصلحة المسلمين ويضعها فوق كل اعتبار. أراد أن يضمن استمرار الدولة الوليدة فرشح لها من يرى أنه أول بها من الجميع.

دخل طلحة بن عبيد الله على أبي بكر (وهو في مرض الموت) فقال: استخلفت على الناس عمر وقد رأيت ما يلقي الناس منه وأنت معه. فكيف به إذا خلا بهم وأنت لاق ربك فسألك عن رعيته. فقال أبو بكر وكان مضطجعا: أجلسوني. فأجلسوه. فقال لطلحة: أبا الله تفرقتي أو أبا الله تفروفتي. إذا لقيت الله ربي فسألني قلت: استخلفت على أهلك خير أهلك<sup>(١٣)</sup> ومع قناعة أبي بكر بأن عمر هو خير من خلفه. فلم يستبد برأيه في ترشيحه له بل أشرف على الناس - بعد أن اشتد عليه المرض - وهو يقول «أترضون عن استخلف عليكم فإني والله ما آلوت من جهد الرأي ولا وليت ذا قرابة. وأني قد

استخلفت عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا. فقالوا: سمعنا وأطعنا<sup>(١٤)</sup> ولم يقتصر ترشيحه لعمر على استطلاع رأي الصحابة فيه علناً بل لقد استشار في استخلافه بعض الصحابة سراً ومن بينهم عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان ولم يكن أبو بكر حتى ذلك الوقت على ثقة من موافقة عمر بأن يلي الخلافة من بعده.

يروى الطبري أن أبا بكر عندما اشتد عليه المرض دعا عثمان بن عفان فقال: يا أبا عبدالله أخبرني عن عمر قال: أنت أخبر به. فقال أبو بكر: علي ذلك يا أبا عبدالله. قال: اللهم علمي به أن سريره خير من علانيته. وأن ليس بيننا مثله قال أبو بكر: رحمت الله يا أبا عبدالله لا تذكر مما ذكرت لك شيئاً. قال: افعل. فقال له أبو بكر: لو تركته ما عدوتك. وما أدرى لعله تاركه والخيرة له ألا يلي من أموركم شيئاً...

يا أبا عبدالله لا تذكر مما قلت لك من أمر عمر ولا مما دعوتك له شيئاً<sup>(١٥)</sup> وقد رضي فيها بعد في طريقة استخلاف أبي بكر نعم حجة على جواز أن يعين الأمام ولياً لعهد من بعده<sup>(١٦)</sup>.

على أن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يقلد أبا بكر في تعيين من يخلفه في منصبه. كما أنه لم يترك أمر الخلافة كلية لاختار المسلمون لأنفسهم.

وقد اختلفت الروايات في نقل الوقائع التي جرت بعد أن أصيب عمر فنجس أي لؤلؤة الجوسي.

فأشار بعضهم إلى تصريح عمر بأنه كان يرغب أن يستخلف أبا عبيدة بن الجراح أو سالم مولى أبي حذيفة لو كان أحدهما على قيد الحياة<sup>(١٧)</sup>. وانفرد ابن خلدون برواية لم يصرح بمصدرها: وهو أنه بعد أن طعن عمر وسقط فاستخلف عبد الرحمن بن عوف في الصلاة واحتمل إلى بيته. ثم دعا عبد الرحمن وقال: أريد أن أعهد إليك. قال (عبد الرحمن): أتشير علي بها؟ قال: لا قال: والله لا أفعل. قال: فهبي صمتاً حتى أعهد إلى النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عندهم راض<sup>(١٨)</sup>. كما أشار آخرون إلى أن عمر قد أبدى رغبته في تعيين علي بن أبي طالب ليخلفه. ولكن أحجم عن ذلك، لأنه لم يرد أن يتحمل مسئولية مسيرة من يأتي بعده. فيتحمل أمر المسلمين حياً وميتاً<sup>(١٩)</sup>. على أن الرواية التي تكاد أن تجمع عليها مصادر التاريخ الإسلامي: هي التي تذهب إلى أن عمر قد رشح ستة من المهاجرين المبشرين بالجنة ليتخبوا من بينهم من يلي أمر المسلمين بعده<sup>(٢٠)</sup>.

ويبدو أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أراد أن يجمع بين طريقتي سلفيه الكريمين.

فلا يعين أحداً بعينه. وفي نفس الوقت يرشح نقرأ يرى أنهم أكثر أحقية من غيرهم بمنصب الخلافة.

وبهذه الطريقة يفسح المجال من بعده للانتخاب وفي نفس الوقت يضيق دائرة الخلاف على المنصب العظيم الذي سيصبح خالياً بعد وفاته. وقد صدق حدس عمر رضي الله عنه فلم تلبث أن ضاقت دائرة المرشحين حتى اقتضرت على اثنين فقط هما عثمان وعلي. وترك أمر البيت في أحدهما إلى عبد الرحمن بن عوف. وقد تجلت في انتخاب عثمان أسمى معاني الديمقراطية التي لم يشهدها العالم حتى في عصره الحديث.

يقول ابن كثير: ثم نهض عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يستشير الناس فيها (في عثمان وعلي) ويجمع رأي المسلمين برأي رموس الناس وأقيادهم جميعاً وأشتاتاً. متى وفرادى. ويجمعين سراً وجهراً. حتى خلص إلى النساء الضعفات في حجابين. وحتى سأل الوالدان في المكاتب. وحتى سأل من يرد من الركبان والأعراب إلى المدينة في مدة ثلاثة أيام بلياليها. فلم يجد اثنين يختلفان في تقدم عثمان بن عفان... فسعى في ذلك عبد الرحمن ثلاثة أيام بلياليها لا يقتضى بكثير نوم إلا صلاة ودعاء واستشارة وسؤالاً من ذوي الرأي عساه فلم يجد أحداً يعدل بعثمان بن عفان رضي الله عنه<sup>(٥١)</sup>.

وفي اليوم الرابع من وفاة عمر رضي الله عنه دعا عبد الرحمن إلى اجتماع عام وبعث إلى وجوه الناس من المهاجرين والأنصار ونودي في الناس عامة: الصلاة إلى وجوه الناس من المهاجرين والأنصار ونودي في الناس عامة: الصلاة جامعة قامت الصلاة المسجد حتى غص بالناس. ثم قام عبد الرحمن فأعلن انتخاب عثمان وبإيعاده. فازدحم الناس بإيعونه حتى عشوهُ تحت المنبر<sup>(٥٢)</sup>.

وهكذا تمت بيعة عثمان رضي الله عنه بالخلافة بعد جولة انتخابية اشترك فيها ستة من المرشحين. وانتهت بإجماع صفوة الأمة وهم المهاجرون والأنصار على انتخاب واحد

منهم. ومن ثم بويغ بيعة عامة لم يعترض عليها أحد. بل شارك فيها زملاؤه من بقية السنة المرشحين وفي مقدمتهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقد جاءت بيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه مؤكدة لقاعدة انتخاب الخليفة من بين المسلمين. فقد شارك في انتخاب علي وبيعته كافة الصحابة في المدينة من مهاجرين وأنصار. إلى جانب نفر من زعماء الأمصار الإسلامية الذين كانوا متواجدين في المدينة أثناء الفتنة التي أودت بحياة الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه. يقول ابن سعد «لما قتل عثمان رحمه الله. يوم الجمعة لخامس عشرة ليلة مضت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين. وبويغ لعلي بن أبي طالب رحمه الله بالمدينة. الغد من يوم قتل عثمان. بالخلافة بايعه طلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص. وسعيد بن زيد بن عمر بن نفيل وعمار بن ياسر وأسامة بن زيد وسهل بن حنيفة وأبو أيوب الأنصاري ومحمد بن مسلمة وزيد بن ثابت وخزيمة بن ثابت وجميع من كان بالمدينة من أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم» (١٥٣).

وهكذا نصل إلى حقيقة ثابتة. وهي أن الخلافة الإسلامية - بخلاف ما سبقها من الدول والامبراطوريات التي شهدها العالم القديم. وعالم العصور الوسطى - قد نشأت نشأة جمعت بين أفضل أساليب الحكم التي شهدتها المجتمعات البشرية. فكانت شورى انتخابية كما كانت بالتعيين. فطريقة انتخاب الخلفاء الراشدين هي أفضل ما وصل إليه العالم المتدنين في مختلف العصور.

## المواضع :

- (١) القلقشدي - مآثر الأمانة في معاد الخلافة. بيروت ١٩٨٠ - ج١ ص ٨.
- (٢) الطوهرى. سماعيل - الصباح. القاهرة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ - ج٤ ص ١٣٥٣ - ٥٦.
- (٣) القلقشدي المصنف السابق ص ٨.
- (٤) ابن خلدون - المقدمة بيروت ص ١٩١.
- (٥) الطاوودي. أنى الحسن على الأحكام السليمانية. القاهرة ١٩٧٨ ص ٥.
- (٦) ابن خلدون المصنف السابق ص ١٩١.
- (٧) آية ٢٦.
- (٨) آية ٣٠.
- (٩) آية ١٦٥.
- (١٠) الطزى - تاريخ الأمم والملوك. القاهرة ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٩ م ج٢ ص ٦٢٠.
- (١١) المصنف السابق - ص ٦٥٣. ابن كثير ١٣٩٩ البداية والنهاية بيروت ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ - ج٥ ص ٢٥٠.
- (١٢) الشيرازى. أنى الفتح محمد - الملل والنحل. بيروت ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م. ج١ ص ٢٤.
- (١٣) ابن هشام السيرة النبوية القاهرة ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م. ج٢ ص ٦٥٨.
- (١٤) الطزى تاريخ ج٢ ص ٤٥٥ - ٥٩.
- (١٥) ابن هشام - المصنف السابق ص ٦٥٦.
- (١٦) البغوى أحمد بن أنى بغوت تاريخ البطونى - ص ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م. ج٢ - ص ١١٤.
- (١٧) أبو القاسم - عاد الدين سماعيل - المختصر في أخبار البشر بيروت ج١ ص ١٥٦.
- (١٨) ابن خلدون. ربيع الدين عمر - مختصر في أخبار البشر بيروت ١٣٨٩ هـ - ١٩٧٠ ج١ ص ٢١٥.
- (١٩) ابن الأثير - الكامل بيروت ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م. ج٢ ص ٢٢٤.
- (٢٠) ابن هشام - السيرة. ج٢ ص ٦٥٣. الطزى تاريخ ج٢ ص ٤٤٢. ابن الأثير - الكامل ج٢ ص ٢١٩.
- (٢١) ابن كثير البداية والنهاية ج٥ ص ٢٢٤.
- (٢٢) الطزى المصنف السابق - ص ٤٤٢.
- (٢٣) المصنف السابق ص ٤٥٥ - ٥٩.
- (٢٤) السبوى - تاريخ اختفاء - القاهرة ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م. ص ٧.
- (٢٥) ابن الأثير - الكامل ج٢ ص ٢١٦.
- (٢٦) ابن هشام - السيرة النبوية - ج٢ ص ٦٥٠.
- (٢٧) الذهبي. شمس الدين - قول الإسلام القاهرة ١٩٧٤ - ص ١٢.



- (٢٨) من الأثير - الكامل جزء ٢ ص ٢٢٢ - ٣٣.
- (٢٩) المصدر السابق - ص ٢٢٣.
- (٣٠) من كتبه - البداية والنهاية - جزء ٥ - ص ٢٤٧.
- (٣١) المصدر السابق - ص ٢٤٧.
- (٣٢) العقود عباس محمود العفريات الإسلامية بيروت ١٩٦٨ ص ٢٦٢.
- (٣٣) ابن خلدون. العبر وقبائل المنداء والحجر القاهرة ١٣٥٥ هـ ١٩٣٦ - جزء ٢ ص ٢٦٩.
- (٣٤) الطبري. تاريخ جزء ٢ ص ٤٤٧.
- (٣٥) المصدر السابق. ص ٤٤٧.
- (٣٦) من الأثير - الكامل. جزء ٢ ص ٢٩٠.
- (٣٧) ابن عبد ربه. العقد المفرد القاهرة جزء ٢ ص ٢٥٦.
- (٣٨) من كتبه - البداية والنهاية - جزء ٥ ص ٢٨٥.
- (٣٩) المصدر السابق ص ٢٤٩.
- (٤٠) الطبري - تاريخ جزء ٢ ص ٤٤٩.
- (٤١) من ... - شجرة معرية في حلاله. آخر الشهرستاني المثل والحل جزء ١ ص ١٧٧.
- (٤٢) الطبري - تاريخ جزء ٢ ص ٦٢١.
- (٤٣) المصدر السابق ص ٦١٨.
- (٤٤) المصدر السابق.
- (٤٥) حسن إبراهيم حسن النظم الإسلامية القاهرة ١٩٩٢ - ص ٣٢.
- (٤٦) الطبري - تاريخ جزء ٣ ص ٢٩٢.
- (٤٧) ابن خلدون. العبر جزء ٢ ص ٣٦٢.
- (٤٨) الطبري - تاريخ. جزء ٣ ص ٢٩٣.
- (٤٩) المصدر السابق. ابن سعد الطبقات الكبرى بيروت ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ - جزء ٣ ص ٦١. يعقوبي. تاريخ جزء ٢ ص ١٥٠.
- (٥٠) من كتبه البداية والنهاية جزء ٧ ص ١٤٦.
- (٥١) المصدر السابق.
- (٥٢) من سعد الطبقات جزء ٣ ص ٣١.